فنفى العهدة عن نفسه بقوله (يقال) وهذا الاصطلاح يستعمل عادة في صدر الاخبار المجهولة المصدر . ان تاريخ الباطنية يؤيد ان جماعة منهم تركوا العبادات متأثرين بدعوى الكشف عن مقاصدها . ولكنه لم يسجل اخبارا يوثق بها عن تحللهم من الالتزامات الاخلاقية ، سوى ما لفقه خصومهم من حكايات لا سند لها . ولسنا نستبعد مع هذا ان تكون بعض فصائلهم قد ذهبت الى استغلال التأويلات وتحميلها ما ليس في طاقتها . ويخبرنا الداعي ابن حيون ان قوما من الغلاة رفعوا شعار اذا علمت فاصنع ما شئت . وربما انصرف هذا الشعار عند هؤلاء الى الفرائض الخلقية انصرافه الى العبادات . ولكن مسلك عامة اهل الباطن كان ارفع من مستوى هذه الشراذم . ان الباطنية ضمت في صفوفها مكافحين اشداء ضد الظلم وعدم المساواة ، وقادة كحمدان بن الاشعث زاهد اهل الكوفة ، ومفكرين ذوي عقول نيرة اخصبوا التراث الاسلامي بما اثمرته قرائحهم من نتاج علمي وفلسفي غزير كاخوان الصفا وابي سليمان المنطقي ونصير الدين الطوسي والاخرين من امثالهم . وفرقة تضم مثل هذه العناصر لا بد ان تفرض على الباحث ان ينظر بعين الشك الى كل ما ينسب اليهم من غرائب تتناول بالطعن مسلكهم الاخلاقي .

٣ ـ لم يخف الغزالي حيرته امام بعض المسائل التي تثيرها الباطنية . ومنها تفسيرهم للتكاليف الشرعية . وقد وقف عند قولهم « ان تكليف الجوارح لازم لمن يجري بجهله مجرى الحمير التي لا يمكن رياضتها الا بالاعمال الشاقة . واما الاذكياء والمدركون للحقائق ، الذين اطلعوا على بواطن هذه الامور فدرجتهم ارفع من ذلك . » فقال انه فن من الاغواء شديد على الاذكياء . وهي ملاحظة تنم عن شعوره بقوة هذه الحجة ، وربما برجاحتها . . والغزالي كثيرا ما يبطن غير ما يظهر لانه ممن يؤمنون بلزوم مجاراة العوام في معتقداتهم وعدم مشافهتهم بالحقائق كلها .

ومما لاحظه ابو حامد على التفكير الباطني ان فيه امورا يمكن تنزيلها على وجه لا ينكره . ولم يعين هذه الامور . الا انه خلص الى حصر ما ينكر من مذهبهم بالقسم المستمد من مذاهب التنوية والفلاسفة . . وبالاستناد الى اجماع مؤرخي الفرق اعلن الغزالي تكفير الباطنية بسبب ما ورد من ارائهم في الالهيات . وقال: ان اقاويل نقلة المقالات قد اتفقت على انهم قائلون بالهين قديمين لا اول لوجودهما من حيث الزمان . الا ان احدهما علة لوجود الثاني واسم العلة السابق واسم المعلول التالي وان السابق خلق العالم بواسطة التالي لا بنفسه . وقد يسمى الاول عقلا والثاني نفسا . ويزعمون ان الاول هو التام بالفعل والثاني بالاضافة اليه ناقص لانه معلوله . ويدعي ابو حامد ان هذا المذهب منتزع من مذاهب الثنوية القائلة بوجود الهين قديمين هما النور والظلمة مع تبديلهما بالسابق والتالي . ونحن نستدرك على هذا الادعاء عدة امور :

ـ التتمة على الصفحة ٤١ ـ

الثمرة الوحيدة

لا تسألوني .. كيف ضيعت السنين

وعشتها مجوفا

.. لا تسألوني ..

لانني رضيت أن اكون مثلها .. مزيفا !!

●

يا اصدقاء العمر ، لا اود ان اخوض في الكلام

فلم تكن حبا حكايتي ، ولا ختامها الدلال ، والخصام

كانت علاقة بلا غرام

من اجلها هجرت شارعي القديم ، والصبية الغريرة الغناء

ومجلسي هذا .. مع المساء

وكنت عندها ـ كما رأى الجميع ـ سائلا اعمى ، ثقيل الرأس ، مذعنا

يقارف الذنوب ، وهو يلعن الزنا

●

لما رأيت هوتي .. بلا قرار

وليلها لم ينجب الاطفال ، والثمار

أهبت بالبحار ..

.. انشر شراعك القويم ، واتجه الى شواطىء النهار

واقذف الى الاغوار .. صندوقا حشونا قلبه المشئوم ، بالصبار والحنظل

وارفع على الصاري .. اغانينا ، تصد الريح ، والقرصان

وعندما تلامس الاقدام .. مرفأ الامان

لوح لاصحابي ، وناد البنت .. لا تخجل ..

ففي صدورهم ، مراعى الحب ، والغفران .

محمد مهران السيد